جائحة كورونا والبحث التاريخي

د. علي عفيفي علي غازي(*)

بدايةً، الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش أستاذ قدير، وباحث ذو باعٍ طويل في الدراسات التاريخية، ومهتم بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والمهمَّشون، ومستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنت، ومن ثمَّ فهو يقدم فكر وقراءة تحليلية عميقة لتاريخ الزمن الحاضر، ويستشرف من خلالها جوانب من المستقبل، ومن ثمَّ فإنَّ التعقيب على ورقتهِ، التي تحمل أُطر بحثية تحليلية استشرافية من الصعوبة.

أؤيده في أنَّ التحقيب التاريخي ليس قالباً جامداً، فهو من وضع البشر، وقابل للتعديل والتغير، ومرتبط بحدثٍ تاريخي يتسبَّب في طفرةٍ تغيرية، قد تكون سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو كارثية، وقد تناولت في كتابي (تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية)[1]، إشكالية التحقيب التاريخي، وذكرت أنَّ المؤرِّخين والباحثين في التاريخ تعترضهم مشكلة التقسيمات الزمنية أو ما يُعرف بالتحقيب التاريخي، وقد أثارت هذهِ المسألة انتباه مجموعة من المفكِّرين، ناقشوها بعمق، منهم المفكِّر عبد الله العروي (ولد ١٩٣٣م) في كتابهِ (مفهوم التاريخ)، ومحمد عابد الجابري (١٩٣٥-٢٠١٠م) في كتابهِ (تكوين العقل العربي)[2]. وتنبع أهمية التحقيب من أنَّه وسيلة ضرورية لتأطير وتنظيم أحداث الماضي؛ للوقوف على معانيها ومدلولاتها التاريخية الحقيقية، ويُساعد على تقريب التاريخ من أفهام الناس، ويُيسِّر على الباحثين والدارسين المتخصِّصين.

وقد قسَّمت المدرسة الأوربية التاريخ إلى قديمٍ ووسيطٍ وحديث، تحت تأثير الأيديولوجيا، فجعلوا سقوط الإمبراطورية الرومانية أمام غزوات الجرمان في سنة ٤٧٦م نهاية التاريخ

(*) مركز حسن بن مُحَمَّد آل ثاني للدراسات التاريخية / قطر.

القديم، ثـمَّ سـقوط الإمبراطوريـة البيزنطية بفتح السـلطان العثماني مُحَمَّد الثاني للقسـطنطينية في عام ١٤٩٢م بدايـة عـصر النهضـة الأوربيـة الحديثـة والمعـاصرة، ولم يتم الاعـتراف باصطلاح (التاريخ المعـاصر) إلَّا من زمنٍ قريب، بنشر بنديتو كروتشي Benedetto Croce (١٨٦٦-١٩٥٢م) كتابه المعنون: (الفلسـفة والتاريخ) Filosofia e storiografia في عام ١٩٤٩م.

تنطلق الفكرة التي ستقسِّم التاريخ الإنساني في ظلِّ ما بعد العولمة وما بعد الحداثة وما بعد العدمية، إلى (عصر المخطوط)، ويشمل تاريخ العالم بجزئياتهِ التفصيليـة لـكلِّ إقليـم حتَّـى قيـام الألمـاني يوهان جوتنـبرج Johannes Gutenberg (١٣٩٨-١٤٦٨م) بتطوير قوالب الحروف الطباعية، في سنة ١٤٤٧م، ومـن ثـمَّ اعتُبِر مخـترع الطباعـة الحديثة. وبالتـالي يُمكـن أنْ نطلق على العـصر التالي (عصر الطباعـة)، والـذي يشـمل التاريخ الإنسـاني ككل متضمنـاً التفاصيل الجزئيـة لكلِّ إقليـمٍ وأُمة حتَّى قيام الفيلسـوف الألماني وعالم الطبيعة والرياضيات غوتفريد فيلهيلم لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦م) باخـتراع اللغة العالميـة لأجهـزة الحواسـيب الرقميـة، في القـرن السابع عشر؛ ليبدأ (العصر الرقمي) أو ما اصطلح مؤخـراً على تسـميتهِ (العصر السـيبراني) المعاصر، وأرى أنَّ هـذا التقسـيم يتجاوز الحـدود الجغرافية والأيديولوجيـة، وكذلـك السياسـة؛ لأنَّه سـيربط التاريـخ بطفـرةٍ معرفية في مجـال المعرفة الإنسـانية ككل، ذلـك أنَّ اخـتراع الطباعـة أحـدث طفـرةً معرفيـة وجعل من الكتاب متاح بصـورةٍ أكثر عن العـصر المخطوط، ثمَّ جاء اختراع الكمبيوتر لينقل العـالم إلى طفرةٍ معرفية جديدة، وشـكَّل نقلةً نوعية مختلفة جعلت من العالم كلَّه قرية كونية صغيرة.

وإذا كان التاريـخ في المفهـوم العـام هـو سـجل الماضي، ونهر الحيـاة المتدفِّـق منذ الأزل في موجـاتٍ متتابعـة الواحـدة بعـد الأخـرى، وإذا مـا كان المقصـود هـو تاريـخ الوجـود البشري في الأرض، فإنني أرى أنَّ هذا التقسـيم سيتجاوز أيَّة خلافات بين المؤرِّخـين المعاصرين الشرقيين منهم والغربيـين؛ لأنَّـه سـيتجاوز الخلافات السياسـية والأيديولوجيـة، وسـيربط التحقيـب التاريخـي بالطفـرة المعرفية الثقافيـة، التي نتجت عن اختراع الطباعـة، ومن ثمَّ اخـتراع الكمبيوتـر. ولكن قد يقـول قائـل إنَّ المشـتغلين في كلِّ حقـلٍ معـرفي، كالطبِّ مثلاً، سـيقولون إننا يُمكننا تقسيم التاريخ وفـق اكتشـافاتٍ طبيـة تركـت تأثيرهـا الأكـبر في تاريـخ الإنسـانية، أو قد يقـول العاملـين في مجال التكنولوجيـا إنَّ هنـاك اختراعـاتٍ كالمصبـاح الكهربائـي مثـلاً، وأجهـزة البـث والاسـتقبال للموجـات الصوتيـة، واخـتراع التليفـون، كلُّهـا اختراعـات أحدثت طفرة في تاريـخ البشرية، وفي تاريـخ الكـرة الأرضيـة، إلَّا أننـي أرى أنَّ أعظـم اختراعـين كان لهـما التأثـير الكبـير في التاريخ هما اخـتراع الطباعـة، ثـمَّ اخـتراع الكمبيوتـر؛ لأنَّهما اختراعان لهـما التأثير المباشر على مصـادر المعرفة، وهـي الكتـاب، إذ نقـل الاخـتراع الأول الكتاب مـن الصـورة المخطوطـة المحـدودة النسـخ إلى الصورة المطبوعة متعددة النسـخ، سهلة التداول، وجـاء الاخـتراع الثـاني لينقـل الكتـاب، مصـدر

المعرفة، إلى صورةٍ جديدة هي الصورة الرقمية، التي سهَّلت على الباحثين والمثقفين حمل آلاف، بل ملايين الكتب في حيِّزٍ ماديٍّ محدود للغاية، وسهَّلت مواقع الإنترنت ومحركات البحث الوصول للمعلومة بسرعةٍ هائلة، فبدلاً من قراءة مخطوطٍ كامل، أو كتابٍ مطبوع كامل، أصبح بالإمكان بالضغط على زرٍّ واحد لمعرفة المعلومة التي أبحث عنها في الكتاب في دقائق معدودات، مع إمكانية مقارنة المعلومة مع مصادر أخرى في ذات اللحظة. وبالتالي ألا تشاركوني الرأي أنَّ هذين الاختراعين كان لهما التأثير الأكبر في تاريخ البشرية، وأنَّه يتوجَّب تحقيب التاريخ الإنساني وفقهما: العصر المخطوط، العصر المطبوع، العصر الرقمي أو السيبراني.

وإذا كان الدكتور بوتشيش قد ربط في تحليلهِ انهيار الإمبراطوريات والحضارات بالأوبئة والطَّواعين، فإنَّه ربط لا يكفي وحده، إذ من الممكن اعتبارها فقط عامل من عوامل متعددة، خاصةً أنَّ الفترة الزمنية الممتدة بين الوباء والانهيار طويلة، فمثلاً الطَّاعون الأنطوني أو وباء الجدري اجتاح الإمبراطورية الرومانية ما بين عامي (١٦٥-١٨٠م)، بينما كان انهيار الإمبراطورية الرومانية أمام غزوات الجرمان، كما سبق الذكر في عام ٤٢٦م، أي بعد ما يزيد عن قرنين من الزمان، ثمَّ إنَّ اجتياح طاعون جستنيان للإمبراطورية البيزنطية بين عامي (٥٤١-٥٤٣م) بينما كان سقوط الإمبراطورية البيزنطية، كما سبق الذكر في عام ١٤٩٢م، أي بعد ما يزيد عن العشرة قرون، ثمَّ إنَّ الطَّاعون الأسود الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٤٧-١٣٥٢م)، تفصله عن عصر النهضة ثلاثة قرون، ومع ذلك لا ننكر دور هذهِ الأوبئة في التمهيد للتحولات التاريخية والحقبة التاريخية الجديدة، ولكن لا ننسى أنَّ هناك سُننٌ أخرى مهَّدت لهذا التغيير، فمنذ أنْ مارس الإنسان دوره في إعمار الأرض، أدرك أنَّ الحضارات والإمبراطوريات تمر بنفس أطوار النفس البشرية، فتبدأ من دور الطفولة، والذي تكون فيه صغيرةً وضعيفة، ثمَّ مرحلة الشباب والتي تكون فيها قوية فتية، وأخيراً مرحلة الشيخوخة، حيث تدب في أوصالها عوامل الضعف والانهيار والتفكك، فهذهِ سُنَّة كونية، منذ أنْ خلق الله (ﷻ) الإنسان، فأين الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الإسلامية، والإمبراطورية البريطانية، التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وحتماً ستنهار السيطرة والهيمنة الأمريكية يوماً ما قد نراه بعيداً وهو قريباً.

بالإضافة إلى أنَّ البشرية قد شَهِدت منذ فجر التاريخ العديد من الأمراض الوبائية والطَّواعين، والتي أزهقت الكثير من الأرواح، وكان لها تداعياتها على الحياة الاقتصادية والسياسية، إذ اجتاحت العالم عِبرَ تاريخهِ موجاتٍ من الكوليرا، الطَّاعون، الجدري، الأنفلونزا الأسبانية، التيفود، الملاريا، الحصبة، التراخوما، السعال الديكي، السل، الأمراض المعوية. وتعرضت الكرة الأرضية عِبرَ تاريخها الحديث لاجتياح الأمراض لها، والتي تسبَّبت في وفاة الكثير من أهلها، ولم يقتصر تأثيرها على بلدٍ بعينها، بل كان يمتد لكلِّ بلدان العالم المعمور، ففي عام ١٧٢٠م

ضرب مدينة مارسيليا الفرنسية الطَّاعون العظيم، وقتل أكثر من مئة ألف شخص[٣]، وفي عام ١٨٢٠م بدأ مرض الكوليرا من أندونيسيا وتايلند والفلبين، وكان وباءً عظيماً توفِّي فيه أكثر من مائة ألف شخص، وفي عام ١٩٢٠م اجتاحت العالم الأنفلونزا الأسبانية، والتي اعتُبرت حينها كارثةً بشرية، إذ أُصيب بها (١٠٠) مليون، وعجز المتخصصون عن إيقافها[٤]، وها نحن في عام ٢٠٢٠م نتعرض لفيرس كورونا، والذي انطلقت شراراته الأولى من أكبر تجمعٍ بشري على سطح الأرض من الصين، وأدى إلى عزل مقاطعات، وولايات، ودول، وتجاوز عدد المُصابين بهِ حول العالم (١٦) مليون، ورغم ذلك لا يزال عدد الوفيات أقل من المليون.

بالرجوع إلى كتاب دليل الخليج لجون لوريمر John Lorimer (١٨٧٠-١٩١٤م)[٥]، يتبين أنَّ جُلَّ، إنْ لم يكن كل موجات الأمراض الوبائية، التي اجتاحت العالم قد انطلقت شرارتها الأولى من الصين، أو الهند، وجنوب شرق آسيا، وأنَّ كلَّها أو جُلَّها وصل إلى الحجاز مع الحُجَّاج القادمين من جنوب شرق آسيا، كما كانت هذهِ الطَّواعين تأتي قادمةً مع السفن التجارية التي تنقل البضائع، وتمر عِبرَ إيران والجزيرة العربية لتصل إلى أوروبا. إذ يرصد تقرير بعنوان: (الأوبئة والمنظَّمات الصحية في منطقة الخليج) تاريخ الطَّواعين التي أصابت أوروبا والعالم بدايةً من القرن السادس عشر حتَّى مطلع القرن العشرين الميلاديين، وتبيَّن أنَّ هذهِ الأمراض الوبائية لم تكن مرتبطةً بشهورٍ ولا بفصولٍ معينة في السنة، وإنَّما كانت تنتشر في أيِّ وقتٍ من السنة، كما إنَّها خلَّفت وراءها الكثير من الموتى، فقد بلغ عدد الوفيات في مدينة البصرة (١٠٠٠) حالة في اليوم من جرَّاء الطَّاعون، الذي انتشر فيها عام ١٧٩٩م، كما بلغت حالات الوفاة في عربستان (٢٥٠٠) حالة في اليوم، عندما ضربها طاعون سنة ١٨٧٦م، كما أنَّ طاعون سنة ١٨٨١م قد أهلك نصف سكَّان مدينة النجف العراقية، وتسبَّبت الإنفلونزا الإسبانية أو الحمَّى في وفاة الكثير من البشر في الإحساء بالمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وذلك في عام ١٨٩١م، وقُدِّر عدد ضحايا الطَّاعون (الموت الأسود) في عام ١٨٩٣م بنحو (١٢) مليون إنسان، وفي عام ١٩١٨م حصدت الإنفلونزا الإسبانية (١٠٠) مليون إنسان، أي ما يُقارب ٥٪ من إجمالي سكَّان العالم.

ويذكر (لوريمر) أنَّ بعض الناس كانوا يهجرون مدنهم وقراهم فراراً من هذهِ الأمراض الوبائية، إلَّا أنَّهم كانوا يجلبون معهم الأمراض القاتلة، ويتسببون في انتشارها، وكانت هذهِ الأمراض والطَّواعين، حسب توصيفه، فتَّاكة، وكان معظمها يظهر فجأةً، ويزول تدريجياً من تلقاء نفسهِ، وخاصةً مع ارتفاع درجات الحرارة، ودخول فصل الصيف. ويُذكر أنَّ هذهِ الأمراض الوبائية كانت تتسبَّب في إفناءٍ عظيم من البشر، وكانت تزحف وتنتشر من مدينةٍ إلى أُخرى، ومن قريةٍ إلى ثانية، في موجاتٍ مستقلة من العدوى، وتنتشر بسرعةٍ كبيرة، كما كانت تتفشَّى بين مخيمات البدو، وبين قوارب الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي، وتُصيب الجاليات الأوربية، وأحياناً المسؤولين البريطانيين، وتتسبَّب في موت خلقٍ كثير.

وفي التاريخ المعاصر مهَّدت عدد من الأوبئة، انتشرت في أنحاءٍ مختلفة من العالم لظهور كورونا، إذ ظهر في عام ٢٠٠٢م وباء الالتهاب الرئوي اللانمطي الحاد (سارس) بمدينة فوشان جنوبي الصين. وشَهِد عام ٢٠٠٩م ظهور وباء إنفلونزا الخنازير في المكسيك، وفي عام ٢٠١٤م تفشَّى وباء (إيبولا) منطلقاً من غينيا في أفريقيا، ثمَّ انتقل إلى معظم دول العالم، وحصد أرواح أكثر من (١١) ألف شخصاً. يؤكِّد هذا على أنَّ كلَّ كارثةٍ طبيعية هي محاولة من الطبيعة لخلق توازنٍ جديد، وهي بمثابة رد فعل لِمَا يقوم بهِ البشر تجاه تناغم النظام الطبيعي، وهو ما يتطلَّب استجابة فورية ومناسبة من الجنس البشري، فالأمر لا يتعلَّق بالغنى أو الفقر، ولا بالتطور أو التخلف، ولا بالدول المتقدمة والنامية، بل بتوخِّي التمسك بالحكمة والرحمة والإنسانية. إلَّا أنَّ الحقيقة المهمة من هذا السرد التاريخي هي التأكيد على قدرة الكرة الأرضية على استعادة عافيتها مرةً أخرى، وأنَّ الحياة لن تتوقف إلَّا أنْ يشاء الله (ﷻ).

ونُشير إلى الفارق أنَّ ما تشهده البشرية حالياً يأتي في ظروفٍ مختلفة من التقدم العلمي والتطور التكنولوجي، كما أنَّ أساليب السيطرة على الأوبئة اختلفت، وتطور الطب الحديث، وهو ما يبدو من قلَّة أعداد المتوفِّين من جرَّاء فيروس كوفيد ١٩ المُستجد، مقارنةً بأعداد المُصابين كما سبقت الإشارة، كما أنَّ العولمة ليست مرتبطة بإمبراطورية أو حضارة بعينها، فهي مرتبطة بسيطرة التكنولوجيا المعلوماتية ووسائل الاتصال الحديثة، ومن ثمَّ فإنَّ الحديث عن انهيار نظام العولمة العالمي من جرَّاء تأثير جائحة كورونا لا يعدو إلَّا أنْ يكون رهناً من التكهنات، إلَّا أنَّها بلا شك تمثل فاصل تاريخي بين مرحلتين مختلفتين تماماً، فعالم ما بعد كورونا سيختلف تمام الاختلاف عن عالم ما قبلها، ولكن ذلك لا يعدو إلَّا استنتاجاً ليس إلَّا، فالمؤرِّخ والباحث في التاريخ بحاجةٍ إلى الفترة الزمنية الكافية للحكم على نتائج الحدث التاريخي؛ لأنَّ التاريخ لا يهتم إلَّا بحفظ الأحداث ذات الأثر الممتد، فالمادة التاريخية هي العنصر الأول في كتابة التاريخ، وكلَّما توافرت وتنوعت، كلَّما استضاء أمام المؤرِّخ العصر الذي يؤرِّخ له، وهذا يتطلَّب أنْ يكون على بعدٍ زمني يمكِّنه من رؤية كافَّة جوانب الحدث التاريخي ونتائجه.

والقرآن الكريم حين يأمر المسلمين بالنظر والتأمل والتدبر في حوادث التاريخ، يحاول أنْ يُبين لهم من خلال مفاهيم العِظة والعِبرة التجارب التي مرَّت بها الأُمم السابقة والجماعات البشرية الماضية، لكي يتعلَّم المسلمين دروسها، ذلك أنَّ القرآن الكريم دائماً ما يؤكِّد على أنَّ التغيرات التاريخية لم تحدث فجأة، وإنَّما كانت نتيجة تراكم بعض الأسباب، التي يتحتَّم عليها تغير كبير بعد فترةٍ من الزمن قد تطول وقد تقصر. فدراسة التاريخ لا غنىً عنها للإنسان، ذلك أنَّ معرفة التاريخ عن دراسةٍ علميةٍ صحيحة تُكسب الإنسان خبرة السنين الطويلة التي عاشها أسلافه، وللوصول إلى تلك الخبرة عليه أنْ يدرس تاريخ عدَّة قرون من الزمان، فكأنَّه بهذا يكون عاشها، وهذهِ الخبرة التي اكتسبها من الدراسة تُنير له

حـاضره ومسـتقبله، بحيـث يمكننـا القـول بـأنَّ التاريـخ ضرورة اجتماعية لكلِّ جماعةٍ بشرية؛ لكي تتعـرف عـلى ماضيها، الذي يسـاعدها عـلى تفهم حاضرها، وتلمس طريقها إلى مسـتقبلها[٦]؛ ذلك لأنَّ التاريخ يصنع الإنسـان بقـدرٍ أو بآخر، وهذا ما يجعلنا نؤكِّد على أنَّ التاريخ ليس قصة تنتهي في الماضي، ولكنـه يُقدِّم أسـباب الظواهر الاجتماعية والاقتصاديـة والثقافية ونتائجهـا، ويوضح أنَّ ما يحدث لم يكن وليد المصادفة، كما أنَّ اهتمام التاريخ بدراسـة الأسـباب يُوسـع مداركنـا، ويُذكرنـا بالبدائل القائمة في الوقت الحاضر[٧].

هـذا بالإضافـة إلى أنَّ الحقيقة التاريخية نسـبية، تختلف من زمنٍ إلى آخـر، فلا توجد حقيقة تاريخية مطلقة، وإنَّما قابلة للنقد وإعـادة القراءة والتأويل، ومَن يجزم بمقدرة العِلم مهما بلغ الإنسـان من طورٍ حضاري في السـيطرة عـلى التوقعـات والكوارث المُحتملـة فهـو مخطـئ، وأبلـغ دليـل عـلى ذلك هو الاكتشـافات العلميـة الجديـدة يوميـاً في الفضـاء والنفس البشرية، يقول الحق (ﷻ): {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّـى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُ الْحَقُّ} (سـورة فصلت، آية: ٥٣). وحرف السين في اللغة العربيـة يدل عـلى المسـتقبل، ولازلنـا نقرأها حتَّى اليـوم للدلالة على المسـتقبل، وسـتتواصل العولمة، والإيـمان بالماديـة العلميـة للدرجة التي سـتوصل الإنسـان للغـرور الشـديد كـما يقول الحـق (ﷻ): {حَتَّـىٰ إِذَا أَخَـذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَـا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَـا أَنَّهُمْ قَـادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَـا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَـا حَصِيـدًا كَأَن لَّمْ تَغْـنَ بِالْأَمْسِ} (سـورة يونـس، آيـة: ٢٤). ويرجـع ذلـك إلى أنَّ العولمـة والماديـة المعلوماتيـة لم تعـد مقتـصرةً عـلى أُمـةٍ أو قومية، وإنَّما شَمِلت كلَّ البشرية.

وإذا كنـت قـد اسـتنتجت مـن دراسـة رحلـة تطـور مناهج البحـث في الدراسـات التاريخية، أنَّ المـدارس التاريخيـة في العصر الحديـث قد تطورت وفـق أحداثٍ تاريخية، فجرت الاهتـمام بالكتابة في موضـوعٍ ما، ربـما من منطلق نظريـة آرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥م)، والتـي تـرى أنَّ اسـتجابة الإنسـان وردَّ فعلـهِ للتحديات الطبيعيـة والجغرافية التي وجدها أمامه قد أوجدت الحضارات، فإنني أؤكِّد على أنَّ جائحة كورونـا سـوف تـؤدي إلى ميـلاد مدرسـةٍ تاريخية جديدة تهتم بالدراسـات التاريخية الخاصة بالأوبئة والطَّواعـين والجوائح، التـي مـرَّت بالبشرية، وما سـيترتَّب على جائحة كورونا في المستقبل من اهتمامٍ بالأسـلحة الجرثومية والفيروسـية، والتي ستكون أكثـر خطراً عـلى البشريـة مـن الأسـلحة النووية، وأشد فتكاً إذ قد تتسبَّب في فناء البشرية.

لقـد أيقظـت جائحـة كورونـا، الناتجـة عـن فيروس كوفيد المُستجد (كوفيـد-١٩)، العالم من ثباتـهِ العميق، ونبَّهته من غفلتهِ، وأكَّدت أنَّ العولمة الماديـة، القائمة على العلـم والتطـور التكنولوجي والفضائي، ليسـت كافيةً لحفـظ الحياة البشرية على سـطح كوكـب الأرض، إذ أدرك أبناء آدم فجأة أنَّ كائناً حياً دقيقاً، لا يُرى بالعين المجردة، من الممكن أنْ يهـدد بفنـاء بنـي الإنسـان، ومـن ناحيـةٍ أخرى كشـفت حقيقة مَن يدَّعـون أنَّهـم دولاً متقدمة، إذ وضعتهـم أمام أزمةٍ أخلاقيـة، فتضحي بعض هذهِ الـدول بكبار السـن والمـرضى بالأمـراض المُزمنة،

وقيام البعض الآخر بقرصنة شُحنات مستلزماتٍ طبية كانت في طريقها لدولٍ أخرى بحجَّة الحاجة الشديدة، وضعت الأخلاق العالمية على المحك. ومن زاويةٍ ثالثة نبَّهت العالم الغربي والأمريكي إلى أهمية الاعتناء بدول ما اصطلح على تسميتهِ بالعالم الثالث، إذ أوضحت أنَّ ما يُصيب أيَّ دولةٍ من هذهِ الدول يكون له تأثيره وتداعياته الأكبر عليهم، ومن ثمَّ يتوجَّب على الجميع التكامل والتكافل والتكاتف في سبيل مكافحة الأوبئة والطَّواعين والجوائح، التي قد تشهدها الكرة الأرضية في المستقبل، وكذلك في سبيل إنتاج لقُاح لهذهِ الجائحة سريعة الانتشار، قبل أنْ تتغلغل أكثر، وتتسبَّب في عدد وفياتٍ أكبر.

وبكلِّ تأكيد لا توجد في أيِّ مجتمعٍ مستشفيات تستطيع أنْ تستوعب الآلاف من المرضى في الوقت نفسهِ، فكل مجتمع بهِ عدد من المراكز الصحية، التي لها طاقاتٍ استيعابية، فإذا ما حدثت أزمة كبيرة أو كارثة طاعونية كبرى، فإنَّ جميع الأنظمة، وكلَّ مستشفيات العالم في كلِّ المُجتمعات لن تستطيع أنْ تستوعب الملايين من المرضى في الوقت نفسهِ، فهي أزمة عامة، وليست أزمة تخص مجتمع من دون الآخر، ولست بصدد الدفاع عن الأنظمة والحكومات، بل إنَّ ما حدث من التضحية بكبار السن والمرضى بالأمراض المُزمنة في بعض الدول لصالح الشباب، وحرمانهم من أجهزة التنفس الصناعي، كشف عورة الدول التي تتشدَّق بحقوق الإنسان، وتدَّعي أنَّها قوى عظمى، ودولاً متقدمة. ولكن ما حدث يفرض على الحكومات أنْ تستعد من خلال خطَّة أزمات الطوارئ في المستقبل لمثل هذهِ الجوائح الطارئة، إلَّا أنَّ البشرية لن تستفيد دروس التاريخ، وإلَّا كانت استفادت من الجوائح والحروب السابقة، التي قضت على الأخضر واليابس، ومن ثمَّ لن يشهد العالم في المستقبل المنظور تضامن دولي، فالإنسان منذ اللحظة الأولى له على سطح الأرض تملَّكته الرغبة في امتلاك ما في يد أخيه، ولعلَّ أول جريمة قتلٍ عرفتها الإنسانية تؤكِّد ذلك، فطمع قابيل في ما وهبه الله (ﷻ) لأخيه هابيل، كان السبب الرئيس في إقدامهِ على قتلهِ، وبهذا سنَّ للبشرية سُنَّةً في سبيل الحصول على ما في أيدي الآخرين. ومن ثمَّ فإنَّ التعاون الدولي في ظلِّ السعي للسيطرة والهيمنة يصعب التنبؤ بهِ في الحاضر والمستقبل المنظور.

وبكلِّ تأكيد أؤيد الدكتور بوتشيش أنَّ عالم ما بعد كورونا سيختلف تماماً عن عالم ما قبلها، ولكني أختلف معه في قضية قيادة الصين للمنظومة العالمية، فانسحاب أمريكا من لعب دور الزعيم، هو انسحابٌ مؤقت، وتراجع الهيمنة الغربية تراجعٌ مؤقت، فنظرية توازن القوى الدولية، والتي تحرص الدول الأورو-أمريكية على تطبيقها منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)[٨]، لن تسمح بنموِّ التنين الصيني كقوةٍ عظمى عسكرية، أو ذات هيمنة، وإنْ كانت قد سمحت له بأنْ يكون جزءاً من منظومة العولمة الاقتصادية، فإنَّه لا بديل عن القوة العسكرية لتحقيق السيطرة العالمية، كما أننا يجب ألَّا ننكر أنَّ التداعيات الاقتصادية لجائحة كورونا سوف تطال الاقتصاد الصيني أيضاً، فإذا كان قد شَهِد نمواً سريعاً في بعض القطاعات، فإنَّه من زاوية نموٍّ مؤقت، ومن زاويةٍ أخرى لا يعوض

خسائرها الناتجة عن تراجع تجارتها الواسعة في الكثير من المنتوجات مع كلِّ دول العالم تقريباً.

ولعلَّ ما تحدَّث عنه من حربٍ باردة بين أمريكا والصين، والتي ترجع جذورها إلى ما قبل جائحة كورونا، ومن ثمَّ تسبَّبت الجائحة في تأجيجها، إذ إنَّ فرض الولايات المتحدة ضرائب جمركية على البضائع الصينية، سابق لبروز الجائحة على الساحة العالمية، ويهدف إلى زيادة دخل الحكومة الأمريكية لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي تعصف بها منذ عام ٢٠٠٨م، وكردٍّ فعلٍ في سبيل حماية الصين لاستثماراتها الاقتصادية سعت إلى بناء قاعدةٍ عسكرية، واستثماراتٍ اقتصادية جديدة لها في جزيرة فيلكا الكويتية في محاولةٍ لكسر الهيمنة الغربية على منطقة الخليج العربي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وكذلك مدَّ طريق الحرير الجديد، الذي يهدف إلى ربط الصين بالقارة الأوربية، وتشارك فيه (١٢٣) دولة، ويُسهم في تسريع وصول منتجاتها إلى الأسواق العالمية، إلَّا أنَّها في نفس الوقت خير دليلٍ على أنَّ القطبية العالمية لن تتأثر بأزمة جائحة كورونا، فتراجع دور أمريكا كقائد وزعيم يتربَّع على عرش الزعامة العالمية منوطٌ بانهيارها الداخلي أولاً، ولعلَّ في تجربتها في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، والتي انتهت بانهيارهِ في مطلع عام ١٩٩١م، لهي خير دليلٍ على قدرتها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية على الخروج من أيِّ حروبٍ مماثلة منتصرة. ولعلَّ ما يروِّج له الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي من أنَّ الفيروس ليس إلَّا هجوماً بيولوجياً من قبل الولايات المتحدة لعرقلة تقدم الصين، لهو خير دليلٍ على أنَّ الفيروس قد استُغل في الحرب الباردة بين الدولتين، والتي لم يكن الفيروس سببها، ولكن تمَّ توظيفه لخدمتها، وخاصةً ما صدر على لسان الرئيس الأمريكي من أنَّه فيروسٌ صيني، والإشاعات التي يتم ترويجها وتعزو تفشِّي المرض إلى عادات الأكل الصينية، إلَّا أنَّ ذلك يُشير إلى بوادر تشكُّل قطبية عالمية جديدة قد يشهدها عالم ما بعد كورونا تقوم على أساس الثنائية وليس الأحادية.

ولست أؤيد الدكتور بوتشيش فيما ذهب إليه من أنَّ العولمة الاقتصادية في طريقها للانهيار، بل بالعكس ستواصل نموها، فتوقف خطوط التجارة الدولية توقف مؤقت، ما يلبث أنْ يستعيد نشاطه سريعاً بعد زوال الجائحة، وهذا ما يؤكِّده درس التاريخ إذ إنَّ خطوط التجارة العالمية، التي توقفت في أعقاب الأوبئة السابقة، ما لبثت أنْ استعادت نشاطها مرةً أخرى، بالإضافة إلى أنَّه قد يبدو متوقفاً في الظاهر، ولكنه مستمر فيما يتم من عمليات بيعٍ وشراء أونلاين من خلال مواقع الشبكة العنكبوتية المُسمَّاة (الإنترنت)، ولعلَّ في مشروع الحزام والطريق الصيني أبلغ دليلٍ على أنَّ العولمة الاقتصادية ستشهد المزيد منها مستقبلاً. كما أنَّ الحزب الشيوعي الحاكم في الصين، والذي يخوض مواجهة جيو-سياسية متوترة مع الولايات المتحدة كما سبق الذكر، سيقوم بـ(تصفية الحسابات) مع المُجتمع الدولي بعد انحسار الأزمة، وسيعمل على تسريع عملية فكِّ الارتباط بين الاقتصادات الكبرى، إذ يتم تسييسه وإقحامه في السرديات،

التـي تحركها أجندات العديد من الأطراف الفاعلة المتصارعة.

كـما أنَّ تضاعـف الإنتـاج الصناعـي الطبـي الصيني، لا يُمثل إلَّا طفرةً مؤقتة مرتبطة بالجائحة، فهو نـوعٌ من أنـواع اقتصاد الأزمـات والطوارئ، ولعلَّـه يذكرنـا بما حـدث في مصر على يـدي مُحَمَّد عـلي (١٧٦٩-١٨٤٩م) من طفـرةٍ صناعية كانت مرتبطـةً في المقـام الأول بخدمـة جيشـهِ وأهدافـهِ التوسـعية، ومن ثمَّ ما لبثت أنْ انهارت مع تحجيمه وفـرض الـدول الأوربيـة عليـه معاهـدة لنـدن ١٨٤٠م، وهـو مـا لـن تقبـل بـهِ الـدول الأورو-أمريكيـة بالنسـبة للصين أيضاً، ولا بـدَّ من التأكيد على أنَّ الانتصار دائماً في الصِّراع ما بين الاشـتراكية والرأسمالية يُحسم لصالح الأخيرة، ولعلَّ أبلغ دليل عـلى ذلك هـو انهيار الأنظمة الشـيوعية في روسـيا والصـين مـن قبـل، بالإضافـة إلى أنَّ هـذهِ الطفرة في بعـض صناعـات الأدوات الطبيـة والمعقـمات لا يمكـن أنْ تعـوض خسـائر الاقتصـاد الصينـي الكبـيرة، فالتداعيات الاقتصاديـة للجائحة كبيرة، لاسـيَّما أنَّ الصـين تُعتـبر السـوق المُصـدِّرة الرائدة في العـالم، يُضـاف إلى ذلك نزيف الأسـعار العالمية المستمر منذ منتصف العَقد الأخير[٩].

ونؤكِّـد كذلـك عـلى أنَّ الولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـلى الرغـم مـن تخوفها مـن تعاظم قوة الصين الاقتصادية، إلَّا أنَّها في الوقت الذي تتوجَّس فيه قلقاً من التفوق النسـبي للاقتصاد الصيني، تجد نفسـها في حاجـة إلى اقتصادٍ صيني قـوي من أجل المحافظة على اسـتقرار النمـوِّ في الاقتصاد العالمي، وهي مصلحة يقتسـمها الجميـع. وينبغي أنْ نتذكَّر أنَّ الصـين، التـي تُقـدم نفسـها أو يُقدمهـا البعض نموذجاً بديلاً، هي في الأساس جزءاً من الاقتصاد العالمي الرأسمالي. وقد يكون ثمَّة تغيير في المضامين الاجتماعيـة للنظـام العالمـي الراهن، وهذهِ مسـألة طبيعيـة تاريخيـاً، غـير أنَّ الأنـماط الجوهريـة، التي يقـوم عليها من غير المُرجَّـح أنْ تتغير جذرياً؛ لأنَّها مـن صميم أزمتهِ البُنيوية، التـي تدفعه في كلِّ دورةٍ من دوراتـهِ الطويلة نحو التشـعب لا التغير؛ إذ إنَّ اللامسـاواة والاسـتبعاد والعنف، وتخريب النظام الأيكولوجي ورسملة الدولة كلُّها من صميم تلك الأنماط[١٠].

أخيراً نؤكِّد عـلى أنَّ قانون الحضارات مرتبط بـدورة حيـاة الإنسـان، فتمـر بمرحلـة الطفولـة ثـمَّ الشـباب وأخـيراً الشـيخوخة، وأنَّ الأوبئـة ليسـت العامـل الرئيـس في انهيـار الحضـارات والإمبراطوريـات، كـما نؤكِّد على أنَّ عـالم ما بعد كورونـا سيشـهد مزيـداً مـن العولمـة الاقتصادية العلميـة والطبيـة التعاونيـة بعكـس النظـرة غـير المتفائلـة، وسيشـهد مزيـداً مـن الصِّراعـات في سـبيل السـيطرة على المواد الخام اللازمـة لتطوير الصناعـات، وعلى الأسـواق التجاريـة لتصريف المنتوجـات، وأنَّ مـا يبـدو في الوضـع الراهـن مـن أنَّه تقـدمٌ للصين في سـبيل قيادتهـا للمنظومة العالميـة هـو تقـدم آني ومؤقَّـت، وسـيتراجع دورهـا بـزوال الجائحة رغم أنَّها قـد تجني أرباحاً اقتصادية.

وآخـراً نذكـر بـأنَّ الأزمـة لا تنتهـي بانتهـاء الفيروس، فمـن المهم أنْ تضـع الحكومات خططاً للتعـافي في مرحلـة مـا بعـد الأزمـة، وأنْ تتضمَّـن

إستراتيجياتٍ جديدة للتعامل مع طوارئ الأوبئة والطَّواعين والجوائح وإدارة الأزمات، وتعادل أهمية هذا الإجراء أهمية التعامل الفعلي مع الوباء نفسهِ، حيث يتعيَّن على الحكومات تبنِّي سياساتٍ مستقبلية واضحة، لتحفيز النموِّ الاقتصادي. ومن ثَمَّ فإنَّ المرحلة التاريخية الحالية، تُعتبر مرحلة فاصلة لمستقبلٍ سيكون فيه المستقبل للإعلام، الذي سيهتم بالبرامج التوعوية التثقيفية، والذي سيوظِّف وسائل التواصل الاجتماعي في برامجهِ، ويستفيد من صفحاتهِ على شبكة الإنترنت، ويتخذ منها أداةً للتفاعل مع الجمهور، فالمستقبل في ظلِّ ما بعد العدمية هو لتكنولوجيا البرمجيات الحديثة المتطورة في عصر ثورة المعلومات.

الهوامش:

(١) علي عفيفي علي غازي، **تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية**، (الدوحة: دار زكريت للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م).

(٢) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، (الرباط: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م)، ص٢٧٠-٢٨٠؛ محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م)، ص٣٧-٥٤.

(٣) جوزيف بيرن، **الموت الأسود**، عمر سعيد الأيوبي (ترجمة)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٤م)، ص٤١٩.

(٤) علي عفيفي علي غازي، «جائحة كورونا وأزمة الأخلاق»، في كتاب: **المؤتمر الدولي التاسع عِبرَ الفضاء الإليكتروني.. تداعيات فيروس كوفيد-١٩**، (لندن: مركز لندن للبحوث والاستشارات، ٢٠٢٠م)، ص٤٢١-٤٣٢.

(٥) لوريمر ج. ج.، **السجل التاريخي للخليج وعُمان وأواسط الجزيرة العربية / القسم التاريخي**، (لندن: دار غارنت للنشر، ١٩٩٥م)، ج٦، ملحق (م)، (الأوبئة والإجراءات الصحية في منطقة الخليج).

(٦) جوزف هورس، **قيمة التاريخ**، نسيم نصر (ترجمة)، (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٦م)، ص١١٧-١٢٥.

(٧) عبد العليم عبد الرحمن خضر، **المسلمون وكتابة التاريخ.. دراسة في التأصيل الإسلامي لعِلم التاريخ**، (أنقرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م)، ص٦٢-٦٥.

(٨) علي عفيفي علي غازي، **الصراع المصري العثماني والتوازن الدولي في ثلاثينيات القرن التاسع عشر**، (دبي: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٧م)، ص٨٣-٨٦.

(٩) وحدة الدراسات السياسية، **جائحة فيروس كورونا المُستجد (كوفيد-١٩) وتداعياتها على الاقتصادات العربية**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠٢٠م)، ص١٣.

(١٠) محمد حمشي، **عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا: تأملات من علم التعقد**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠٢٠م)، ص١٢-١٤.